مذكراتي من كابل إلى بغداد الحلقة الثامنة

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحلقة الثامنة)

انتهى حديثنا في الحلقة السابقة عن أحد فرسان اليمن وسيبدأ في هذه الحلقة أيضاً عن فارس فرسان اليمن وهو (عبد السلام الحضرمي) أمير الجبهة في شمال كابل ، رجل خلوق عابد زاهد تملأه البساطة في كل تعاملاته مع إخوانه وحنّكته الأيام والمعارك واستحق بجدارة أن يكون أميراً للجبهة من ينظر إليه بغير إنصاف يظنه بارداً قليل الشعور ولكنه صاحب رؤية ويكره الاستعجال في غير محله إن أردته مقدام فهو أكثر من ذلك وإن أردته شجاع فهو أشجع من ذلك ، أسر قلوب الإخوة بمحبته وهبه الله من الصبر على أذى إخوانه الشيء الكثير فمن يكون في مركزه قلما ينجو

من خلافات الشباب ، أما عبد السلام فلم يكن يعاني من هذا الأمر لمحبة الجميع له ولمبادرته السريعة لإنهاء أي خلاف كان ولأي سبب كان وقد قتل رحمه الله في قندز أثناء الاجتياح الأمريكي لأفغانستان بعد أن ذهب إلى هناك مدداً لإخوانه في الشمال مع بعض إخوته .

توالت الأيام ولم أجد الصعوبة التي كنت أتوقعها في أن أتأقلم مع هذه الأجواء الجديدة في جبل صابر وتوثقت علاقتي مع جميع الإخوة بحمد الله بدون أية صعوبة وقد كنا نقضي نهار يومنا في الدروس الشرعية التي يلقيها أحد الإخوة من طلبة العلم أو في الدروس العسكرية التي كان يلقيها لنا الشيخ (عبد الهادي العراقي) المسئول العسكري العام ، وفي المساء نتناوب على الحراسة كل حسب الخندق الذي يتمركز فيه وأيضاً هناك خندق أمامي يسمى (الكمين) وهذا تكون الحراسة فيه ليلاً فقط ومشتركة من جميع الشباب بحيث يتناوب اثنين كل ساعتين من الحراسة في هذا الخندق وهو عبارة عن خندق متقدم عن خندق البارود

باتجاه العدو وهو كخط تنبيه أولي لصد العدو في حالة تقدمه وأيضاً لتنبيه الخنادق الأخرى .

بعد فترة جاءنا الأمر للاستعداد لعملية عسكرية فبدأنا بالإعداد والاستعداد لها من كافة النواحي ومن ذلك التعليمات العسكرية عن طبيعة المعركة وطريقة التعامل معها وذلك للإخوة الذين لم يسبق لهم أن دخلوا في المعارك وعندما جاء اليوم الموعود كنا قد تحشدنا بالنسبة لنا نحن العرب مع بعض الأفغان على الطريق العام الذي سيكون هو نقطة الدخول لنا ، بينما كانت مجموعات أخرى من الأفغان متمركزة في محاور أخرى ، وعندما جاءت ساعة الصفر كان كلٌّ منا قد أوصى صاحبه إن كان قتل أن يكون شفيعاً له يوم القيامة وهذه اللحظات التي طالما تكررت معي أعتبرها من أجمل لحظات حياتي ، فبدأ التكبير مع انطلاق الراجمات وقصف الدبابات ومدافع الهاون ومدافع DC وكل أنواع الأسلحة التي يمتلكها الإخوة في طالبان ، ثم تقدمت أنا وأربعة آخرين معي من ضمنهم أخي الحبيب عمر سيف بعد أن تم اختيارنا من قبل الأمير عبد الهادي

العراقي لنكون مجموعة فك الألغام ، فانطلقنا باتجاه الطريق العام نقوم بعملية مسح للطريق حتى تتمكن الآليات والأفراد من التقدم ، والسبب في هذا الأمر إن جماعة التحالف الشمالي كانوا يتقنون فن التشريك بالألغام ويمارسونه بشكل موسع ، والألغام كما هو معروف هي من أكثر ما يخيف الأفغان ، لذلك طلبوا فرقة من العرب تكون كجزء من سلاح المهندسين ليقوموا بفك هذه الألغام فوقع الاختيار علي والذين معي .

كان تقدماً بطيئاً ولكن ليس بالسيئ والسبب في ذلك الكمية الهائلة من الألغام والتي وضعت في الطريق وكانت كلها مشركة تقريباً بحيث تحتاج إلى خبرة تقنية في التعامل معها لأن أي خطأ سيكون هو الأخير لأن النتيجة مقتل أو إعاقة الشخص الذي يقوم بهذا العمل ، بدأنا بحمد الله اجتياز نسبة كبيرة من هذه الألغام ، وأذكر هنا بعد أن وجدنا بعض الألغام بدأت أنادي أخي عمر سيف بالتقدم قليلاً فيما بقي اثنان من الإخوة الآخرين خلفي ليقوموا بإخراج بعض الألغام المشركة المدفونة ، وكنت على مسافة

ثلاثة أمتار تقريباً عنهم وفجأة دوى صوت انفجار رهيب قذفني عن مكان وقوفي وبعد أن استعدت وعيي ووقفت علمت أن الانفجار وقع على الأخوين الذين خلفي فعدت إليهم مسرعاً محاولاً تجاوز الألغام التي في الطريق منادياً عليهم ألا يتحركوا وذلك بعد أن سمعت صوت أحدهم وهو يكبر ، وبعد أن استطعت الوصول لأولهم قمت بسحبه بعد أن اطمأننت للمنطقة الخلفية ووضعته على البتّو (هو قطعة قماش طويلة وعريضة يستخدمها الأفغان في كل شيء حتى في نقل الجرحى) فكانت إصابات الأخ شديدة فلم أشأ أن أحمله مما قد يضر به وناديت على الإخوة فأريتهم الطريق الذي يمكن من خلاله الوصول إلينا ووصلوا بحمد الله وحملوا الأخ الأول وعندما توجهت للأخ الثاني كانت المصيبة أن الأخ بترت قدمه والكرامة أيضاً كان ساقط بكامل جسده على مجموعة من ألغام الدبابات المشركة بألغام أفراد دون أن تنفجر وكانت هذه كرامة كبيرة من الله ، فتوجهت للأخ وطلبت منه ألا يتحرك حتى أتأكد من الألغام فبدأت برفعه قليلاً قليلاً وساعدني أن الأخ

كان في شبه غيبوبة مما ساعد في عدم قيامه بأي حركة خاطئة قد تؤذينا نحن الاثنين وقمت برفعه عن الألغام وكان أخي عمر بجانبي فحملناه إلى مكان آمن ، ثم أخذه الإخوة ناقلينه إلى المستشفى ، كانت هذه الحادثة مؤلمة جداً فقد أصابت اثنين نحسبهم والله حسيبهم ولا نزكي على الله أحداً من خيرة الإخوة أدباً وأخلاقاً ولكن إرادة الله سبحانه وتعالى أن يأتوا يوم القيامة وجراحهم تثعب دماً اللون لون الدم والريح ريح المسك ، بعد نقل الإخوة بقيت أنا وعمر والشيخ عبد الهادي العراقي فطلبنا من عبد الهادي أن يخرج عندما أصر أن يكون معنا في منطقة الألغام حتى لو حصلت أي إصابات لا تكون في الأمير العام لما لذلك من أثر على نفوس المقاتلين ، وبعد أن قمنا بتفكيك الألغام تفاجئنا ببعض الحفر المشركة بشكل مرعب حيث تم وضع ثلاثة عشر لغم دبابة في حفرة واحدة مشركة بألغام فردية في ما بينها ، وللمعلومة أن لغم دبابة واحدة كفيل أن يجعل سيارة أثراً بعد عين ، وبعد أن نظفنا الطريق من الألغام تقدمت الآليات والأفراد بحمد الله ثم واصلنا التقدم .

أخذ التقدم يزداد من منطقة إلى منطقة ونحن نطارد فلـــول مقاتلي التحالف الشمالي حتى وصلنا إلى مدينة شريكار بعد صلاة المغرب بحمد الله وكانت بداية العلميـــة في الـــساعة الثامنة صباحاً تقريباً وكنا إلى الآن لم نخسر في الإخوة العرب أي قتيل سوى الاثنين الجرحى الذين أصيبوا في حقل الألغام ، وبعد وصولنا إلى شريكار بتنا تلك الليلة مـــع التنـــاوب بالحراسة ليلاً وفي النهار كنا نقوم بجولات تمـــشيط لكافـــة المدينة للبحث عن أي من المقاتلين الذين قد يكونون مختبئون في المدينة وظللنا على ذلك ثلاثة أيام اعتقل فيهـــا بعـــض المقاتلين وفي اليوم الرابع وبعد صلاة الفجر كنـــا نـــسمع قصف شديد باتجاه منطقة جبل السراج التي سيطر عليهـــا الطالبان حين وصولوا إلى مدخل وادي بنشير فتوقعنـــا أن القصف من قبل طالبان وأنهم يقومون بعملية تقـــدم تجـــاه وادي بنشير فعدنا للنوم مرة أخرى وبعد ساعتين أو ثـــلاث ساعات تفاجئنا بالإخوة وهم يوقظوننا من النوم صـــارخين علينا آمريننا بالانسحاب فنهضنا ونحن في ارتبـــاك وعـــدم أدراك لما يدور فاستوضحنا الأمر وعلمنا أنه حصل تـــسلل

من قبل أفراد مسعود في المنطقة الواقعة بيننا وبين الإخوة في المقدمة عند جب السراج وحصل هجوم مباغت مما أدى إلى إسقاط المناطق الأمامية وانسحاب طالبان المفاجئ من منطقة شريكار التي نحن فيها فقمنا بجمع أغراضنا بقدر ما نستطيع من أغراض شخصية وعتاد عسكري ولقد فقد الكثير من الشباب الكثير من أغراضهم في الفوضى التي وقعت حينها ، بعد أن اجتمعنا خارج مقرنا للاستماع إلى التوجيهات من قبل الأمير في عملية الانسحاب أخبرنا الأمير أن مجموعة من الإخوة كانوا متوجهين قبل قليل بالسيارة إلى المركز الخلفي لإحضار تموين ووقعوا في كمين في الطريق الرئيسي وسط المدينة وأنه بحاجة إلى مجموعة من الشباب يقومون بالذهاب والبحث عن الإخوة ومعرفة ما حصل لهم ومحاولة إعادتهم حتى وإن كانوا قتلى ، ثم نادى على مجموعة من الأسماء كنت أنا بينهم وعددنا ستة كان من بينهم أخي الحبيب النبراس اليمني (إبراهيم الثور) الذي نفذ العلمية على البارجة الأمريكية في اليمن ثم بعد اختيارنا أوصانا الأمير

بالحيطة والحذر وإننا نحن من يتخذ القرار في أي أمر يواجهنا وإننا قدر المستطاع يجب أن نعلم ماذا حصل للإخوة .

بعد أن ودعنا الإخوة انسحبوا هم باتجـاه كابـل وهـم متوجهين للطريق الرئيسي من خارج البيوت عـن طريـق البساتين ، وتوجهنا نحن إلى داخل المدينة باتجاه الدوار الذي يقع وسط المدينة على الطريق الرئيسي ، وكنا نتسلل مـن بين البيوت متجنبين الطرق المكشوفة بكل حذر متـوقعين الوقوع في كمين في أي لحظة وفي نهاية تقدمنا كنا قد وصلنا إلى قبل الشارع الرئيسي بـشارعين فتفاجئنـا أن قـوات مسعود كانت متقدمه جداً وأن المكان الذي حـصل فيـه الكمين للإخوة أصبح خلفهم فحاولنا الالتفاف مـن عـدة جهات ولم نستطع لانتشار الجنود في كل مكان ممـا أعـاق وصولنا لمكان الإخوة ، عندها قرر أمير المجموعة الانسحاب لأن تقدمنا لا يجدي نفعاً لأننا لن نصل إلى المكان المطلـوب على أي حال فاضطررنا للانسحاب ونحن محبطين وغاضبين لأننا لم نجد وسيلة نصل بها للإخوة والنظر في حالهم مع أنهم في أغلب الأحوال سيكونون قتلى أو أسرى .

وفي أثناء انسحابنا سلكنا نفس الطريق الذي توجه إليه الإخوة الذين سبقونا في الانسحاب وهناك انكشفنا وحصل تبادل إطلاق نار ولكننا استطعنا الهروب من الموقف بسرعة والحمد لله ثم واصلنا حتى وجدنا أحد الإخوة الباكستانيين كان في انتظارنا وفي انتظار أي تائه يمكن أن يمر في ذلك الطريق فأرشدنا إلى المكان الذي تمركز فيه الإخوة فتوجهنا إليهم مباشرة وعند وصولنا أخبرنا الأمير بما حصل معنا فحمد لله على عودتنا وأخبرنا أن الإخوة استطاعوا الهروب من الكمين بعد أن تعرضوا لبعض الإصابات وتم نقلهم إلى كابل والحمد لله .

الذي حصل في هذا الهجوم المفاجئ لم يكن شيئاً متوقعاً حيث أن مقاتلي تحالف الشمالي عندما سقطت المنطقة لم يفروا هاربين بل إنهم دخلوا في سراديب تحت الأرض (تم حفرها أثناء الجهاد الأفغاني ضد الروس وكانوا يختبئون فيها نهاراً وفي الليل يرسلون من يحضر لهم الأكل أما الماء فكان متوفر لديهم داخل هذه السراديب التي تمر في داخلها غدران من المياه الصافية والعذبة وقد دخلت إلى داخل أحد

السراديب فيما بعد فكانت مداخلها سرية وفي الداخل أحياناً تتسع لأكثر من عشرين شخصاً وأحياناً أقل حسب وسع السرداب) وبعد ثلاثة أيام خرجوا من هذه السراديب بعد التنسيق فيما بينهم في عدة أماكن بأجهزة اللاسلكي فكان خروجهم فجأة بيننا وفي المقدمة أربك الخطوط الأمامية الذين ظنوا أن المؤخرة سقطت فاضطروا للانسحاب وعندما رأوهم الذين في المدينة وهم يقاتلون أثناء انسحابهم ظنوا أن الخطوط الأمامية سقطت وساعد ذلك في خروج المقاتلين فجأة في وسط المدينة مما أربك الوضع وتسبب في الانسحاب الكبير من مشارف وادي بنشير إلى الخط القديم في جبل صابر .

بعد وصولنا للإخوة كان أغلب الأفغان قد انسحبوا تماماً ولم يبقى سوى العرب والباكستانيين والأوزبك والتركستانيين فاجتمع قادة المجموعات على عجل مع أمير المجموعة الأفغانية وقرروا المقاومة وتثبيت خط في تلك المنطقة في محاولة لتقليل نسبة الخسارة في المناطق التي انسحبنا منها وبالفعل تم تشكيل المجموعات وتوزيعها ثم فجأة نشب

القتال مرة أخرى وأصبحنا في حالة قتال شوارع بين البيوت وفي البساتين لأن قوات التحالف كانت متقدمة جداً وبدئوا في تطويقنا شيئاً فشيئاً وأثناء هذا القتال قتل أخونا الحبيب أبو فيصل التونسي رحمه الله وقام الإخوة بسحب جثته من منطقة القتال قدر المستطاع لكنهم اضطروا لتركها بسبب توسع رقعة القتال وأيضاً ضخامة جسم أخونا رحمه الله وقد قام الأفغان أهل المنطقة بدفنه فيما بعد ، أخذ القتال يأخذ منحاً ليس في صالحنا بسبب قلة العدد عندنا وقلة العتاد فاضطررنا للانسحاب مرة أخرى للخلف حيث وجدنا أن مقاتلي طالبان المنسحبين قاموا بتثبيت خط خلفنا بعدة كيلو مترات وبعد وصولنا لهم تمركزنا معهم على أمل التوقف نهائياً في هذه المنطقة وتثبيت الخط هنا ولكن للأسف الموقع لم يكن ملائم عسكرياً ومكشوف بحيث لا يوجد لدينا مناطق تأمين حماية وتمركز فكان الانسحاب مرة أخرى ، وعندما وصلنا إلى منطقة دوسرك كان هناك الشيخ الفاضل/ جلال الدين حقاني وبعض مقاتليه حيث حاول إقناع المقاتلين بالتوقف في هذه المنطقة والتمركز فيها ولكن

دون فائدة حيث أن نفسية المقاتلين الأفغان لم تكن في حالة جيدة بسبب هذا الانسحاب فعادت جميع القوات مرة أخرى إلى الخط القديم الذي بدأنا منه العلمية .

أذكر في هذه العملية أنه بعد تقدمنا إلى شريكار لم يبقى أحد على جبل صابر كوننا تقدمنا عشرات الكيلومترات لكن الشيخ أسامة أمر بإعادة مجموعة تبقى على الجبل كونه ذو أهمية إستراتيجية فتم إرسال أخي الحبيب عمر سيف ومعه ستة من الشباب للبقاء على الجبل وحراسته وعندما حصل الانسحاب حاولنا الاتصال بكابل ولم نستطع وكنا نتصل على عمر سيف في الجبل ليكون حلقت الوصل بيننا وبين كابل مما سهل علينا الكثير من الأمور.

بعد العودة والاستقرار لأيام كانت معنويات الشباب لا أقول هابطة لكنها لم تكن بالشكل المطلوب فمقتل أبو فيصل وعدم القدرة على سحب جثته والانسحاب عموماً ضايق الشباب كثيراً ، احتاج الأمر لأكثر من أسبوع حتى يستردوا معنوياهم كاملة ، وحقيقة يفتقد بعض الشباب بعض المفاهيم العسكرية المهمة وهي ذات عامل نفسي مهم

لأن الحالة النفسية تقارب خمسين بالمائة من الحالة القتالية للشخص ومن هذه المفاهيم أن الحرب سجال وهذا ما حصل مع الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد وهو خير البرية ، فالشباب غالباً عندما يدخلون المعارك يدخلوها وقد جاءوا للنصر وهو أمر محسوم في بالهم وهذا التمسناه كثيراً ومثل هذا الشيء لا يمكن الجزم به فقد قال تعالى : (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)(التوبة: من الآية٢٥) ، ولذلك يجب أن يكون قلب المجاهد أثناء دخوله المعركة متعلقاً بالله راجياً النصر منه وليس متوقعاً النصر بسبب الكثرة أو التمكين حتى لا يخذله الله عندما يعتمد على نفسه وموجوداته المادية أكثر من اعتماده على الله .

مر شهر كامل بين الانسحاب ومعاودة الهجوم مرة أخرى على نفس المنطقة وخلال هذا الشهر أذكر أنه تزوج أحد الإخوة فأقيم حفل زفافه في معسكر الفاروق في منطقة (لوقر) وقد حضر هذا الزواج الشيخ أسامة بن لادن حفظه

الله وكثير من قيادات الجماعات الإسلامية المسلحة والسبب في ذلك أن والد العروسة هو الشيخ أبــو عبــد الــرحمن الكندي (مصري) وهو من القيادات الإسلامية المــشهورة في أوساط المجاهدين فكان زفافاً رائعاً تخللته كلمة للــشيخ وجلسات الأناشيد ورقصات شعبية كان يقوم بها الإخــوة أهل اليمن فأدخلوا السرور بها إلى قلوب الحاضرين أدخــل الله السرور على قولبهم في الدنيا والآخرة وقد تشرفت في هذا الزفاف بالسلام على الشيخ والحديث معه عندما قدمني إليه أحد الإخوة المقربين من الشيخ فكانت لحظات مبــهرة بالنسبة لي فذلك الرجل الذي ملأ الدنيا بــسمعته ويخافــه الشرق والغرب ولم يعرفوا له مكانــاً أراه أمــامي بكامــل بساطته وبهجته يشارك إخوانه وأبنائه أفراحهم بكل تواضع.

بعد انقضاء شهر على الانسحاب جاء اليوم موعد الهجوم مرة أخرى على نفس المكان السابق فتجمعــت القــوات وأعادت هجومها مرة أخرى فاندحر العــدو بفــضل الله بشكل سريع كما في المرة السابقة ولكن الإخوة في طالبان لم يخدعهم هذا الانسحاب السريع فبدئوا يمــشطون المنــاطق

بشكل سريع وأكثر دقة فكان يتم تفجير كل السراديب التي يتم العثور عليها بعد التأكد من خلوها أو إلقاء القبض على من فيها واستطعنا بفض الله خلال أيام أن نصل إلى منطقة دوسرك حيث استقر الخط الجديد هناك وتم تثبيته ، وأذكر هنا موقفاً أثر فيني وبقيت الإخوة كثيراً ففي أول ليلة بعد الهجوم كنا نجلس في إحدى المواقع مع مجموعة من الشباب وكان الليل بارداً وليس لدينا ما نتدثر به فأشعل الأخوة النار للتدفئة وتحلقوا حلوها فاقترح أحد هؤلاء الإخوة أن يحكي كل واحد من الحاضرين قصة هدايته وكيف استدل على طريق الجهاد فوافق البعض وتحرج البعض الأخر من ذلك وبدأ بعض الشباب واحداً تلو الأخر يقصون حكاياهم ، وكان ثالث شخص هو عمر العدني رحمه الله كان شاباً صغير السن في السادسة عشر من عمره نحيل الجسم قصير القامة لكنه عالي الهمة أسد من أسود الله ولا نزكي على الله أحد ، فذكر عن قصته أنه من أسرة شيوعية أقحاح وهو الوحيد في أسرته الذي يصلي ويصوم ويعبد الله ، يقول لا أعرف لماذا منذ صغري وأنا أصلي لكنني أحببت

هذا الشيء كثيراً وكان أهلي وإخواني يضربونني كثيراً عندما أصلي أو أصوم في رمضان أو يومي الاثنين والخميس في كل أسبوع وكانوا أحيانا يجبرونني على الأكل وأنا صائم تحت الضرب أو إدخال أكل في فمي عنوة وعندما أبدأ في الصلاة يبدءون بضربي ويجبرونني على قطع الصلاة ، ويقول والله ما زاد في هذا إلا إيماناً بالله وقناعة أنهم على ضلال مبين فلما ضاقت بي السبل ولم أجد وسيلة للعيش معهم قررت الهجرة للجهاد بعد أن كنت سمعت عن الجهاد في أفغانستان وقرأت عن واقع الأمة قبل ذلك في البوسنة والشيشان وغيرها ، فأثر كلامه هذا على الإخوة وأبكاهم في تلك الليلة كيف أن الله أنبته منبتاً حسناً في أسرة خبيثة وذلك عندما أراد الله له الخير .

بعد أيام كنا استقر بنا في منطقة دوسك وجعلنا مركزنا على يمين الخط الرئيسي والإخوة الباكستانيين على يسار الخط حتى نستطيع تأمين حماية الطريق بينما الإخوة الأفغان امتدوا بعد ذلك يمنة ويسره ، كان هذا البيت الذي تمركزنا فيه نعتبره مركزاً خلفياً للخنادق التي تبعد ١٥٠ متراً تقريباً في

المقدمة بحيث يكون تجمع الإخوة في هذا المكان ومن يكون عليه الدور للحراسة يتوجه إلى الخنادق وقد قضيت في هذا البيت أياماً جميلة رائعة سعدت فيها بـــصحبة صـــفوة مـــن الإخوة تميزوا بأخلاقه وروعة تعامله وصدقهم وبـــساطتهم مع الآخرين وأذكر منهم أخي الحبيب أبو أيمن اليمني ذلك البطل الذي جاء إلى أفغانستان عام ١٩٨٧م وبقـــي فيهـــا حتى فتح كابل وخروج الشيوعيين منها ثم رجع لليمن وعاد مرة أخرى لأفغانستان بعد مجيء طالبان وبقي فيها يـــشارك في العمليات حتى قتل هناك أثنـــاء الاحـــتلال الأمريكـــي لأفغانستان ، وأذكر أيضاً أخي الحبيب أبو تراب الباكستاني ذلك الرجل العجيب الذي أحب العرب حباً جماً ولم يكـــن يتكلم العربية فكنت أسأله بلغة أخرى عن سبب بقائه مـــع العرب وعدم رغبته بالبقاء مع الباكستانيين فكان يقول: إن هؤلاء العرب بعضهم من أحفاد الرسول وبعضهم من أحفاد صحابة الرسول ، أريد أن يبارك الله بجهادي بصحبة هؤلاء ... الله أكبر ما أطيب قلبه وما أصفى نيته رجل من أســـرة ثرية من باكستان ترك العز والنعيم وجاء ليتوسد الحـــصى

وينام على الطين كان شجاعاً مقداماً وبطلاً مغــواراً كــان يقول لي لقد جربت الدنيا بملذاتها ولم أجد السعادة فيها وإني الآن لا أملك من الدنيا إلا ملابسي التي علي ولكن سعادتي قد ملأت قلبي وجوارحي وإني أسأل الله أن يتقبلني شــهيداً بعد أن يغفر ذنوبي وسيئاتي ، فرحمك الله يا أبا تراب أنــت وأبو أيمن رحمه الله رحمة واسعة وأسكنكم فسيح جناته .

كان البيت في تلك الفترة خليطاً من الأجناس فالعرب مــن مختلف البقاع والباكــستانيون والأوزبــك والأوربيــون والبنقلاديش ومن مختلف بقــاع الأرض ، كــل هــؤلاء لم يجمعهم المال ولم تجمعهم المصلحة الدنيوية وإنما جمعتهم غاية التوحيد ونصرة هذا الدين والبحث عن جنــات النعــيم ، كانت حياة أخوية بحته يتجلى فيها الإيثار والرغبة في خدمة الآخرين والتسابق على الطاعات فما أن تطلب من أحدهم أن يعمل أمراً حتى يجبك مبادراً (لا إيثار في الطاعــات) ، نعم هذه أمة محمد صلى الله عليه وســلم وهــؤلاء هــم أصحاب الهمم الذين ترفعوا عن عبث الدنيا ومتاعها يرجون ما في الآخرة وما في جناتها .

أثناء تواجدنا في الخطوط الأمامية وفي إحدى الليالي جـــاءني الشيخ عبد الهادي العراقي وسألني ماذا تلاحظ من تغييرات في الأيام الماضية ؟ (وكان سؤاله ليستوضح مدى مراقبـــة الشباب واهتمامهم بالخنادق) فأخبرته أنه منذ ثلاثة أيام قد توقف القصف ليلاً وتوقف الرمي تماماً ، عندها قال لي أخبر الشباب الذين سيكونون في الخنادق اليوم أن يزيدوا مـــن عتادهم فجماعة مسعود ينوون التقدم إما الليلة وإما غـــداً وهذا هو تكتيكهم المعتاد ، فالليالي التي شملها الهدوء كـــان من أجل تقدم مجموعات الرصد لديهم ، وبالفعل طلبت من الشباب الذين لديهم مختلف الأســـلحة أن يكونـــوا علـــى استعداد تام ، وزدنا في تلك الليلة من حالـــة الاســـتعداد وعدد الإخوة في الخنادق الأمامية وبقينا في حالة ترقب على احتمال كبير أن يكون هناك هجوم ، وفي الـــساعة الثانيـــة عشر ليلاً فوجئنا بإطلاق نار كثيف من مجموعات الاقتحام التي هاجمتنا فبادرنا بالرد عليهم ، ووالله لقد كانت المنطقـــة مضيئة من كثرة إطلاق الرصاص وقذائف الآربيجي ، فمـــا

كان من أخونا الحبيب خالد الحبيب إلا أنه أمر جميع الإخوة بوقف إطلاق النار باستثناء اثنين من الإخوة أحدهما أبو تراب الباكستاني رحمه الله ومعه آربيجي وأخر يدعى ضيف الله القطري (قتل في الشيشان فيما بعد) ومعه البيكا ، وكان القصد تكتيك عسكري لاستتراف العدو في كامل عتاده بينما نحن نحافظ قدر المستطاع على العتاد لاستخدامه في هجوم عكسي على المجموعات المهاجمة وقد أبلى هؤلاء الأخوين رحمهما الله بلاءً حسناً لوحدهما وكان يساعدهم مركز الهاون بالقذائف بعد أن أعطيناه إحداثيات مواقع المهاجمين ، وبعد أن هدأ الوضع قمنا بعملية هجوم عكسي في محاولة لإلقاء القبض أو قتل المهاجمين ولكننا لم نجد أحد حيث أنهم انسحبوا بعد الدفاع المستميت الذي قام به الإخوة ، وقد وجدنا بعض الأسلحة وبعض الأعتدة مما يدل على مدى الخسارة التي منيت بها قوات مسعود .

بعد فترة من هذه العلمية جاءني الشيخ عبد الهادي يخبرني أنني مطلوب في كابل وطلب مني أخذ كل أغراضي ، ولما استوضحت الأمر أخبرني أنه لا يعلم شيئاً ، فجمعت

أغراضي وودعت الإخوة ثم غادرت متوجهـــاً إلى كابــــل ، وبعد الوصول إلى المضافة توجهت لأمير المضافة وسألته عن الذي طلبني فأخبرني أنه أبو عبد الرحمن المــصري الأمــير العسكري العام ثم أخذني إليه وبعد السلام وتجاذب الحديث معه عن الجبهة سألته عن سبب استدعائي بكامل أغراضـــي فأخبرني إن علي المغادرة غداً علــى الطــائرة متوجهــاً إلى قندهار وسوف يخبرني مسئول المضافة هناك عــن الــسبب فتوجهت في اليوم التالي بالطــائرة إلى قنــدهار وكــان في استقبالي أحد الإخوة في المطار الذي أخذني بالسيارة باتجــاه خلف المطار وليس باتجاه البوابة التي توصل للمدينة ، ظللت في حيرة من الأمر وعن الغموض الذي يلتف حول ســبب مجيئي إلى قندهار فاستفسرت من الأخ هل نحن ذاهبــون إلى مضافة بيت الرمان فقال لا ولكن ستذهب إلى مكان أخــر وستعرف عندما تصل ، بعد أن قطعنا مــسافة صــحراوية ليست بالطويلة وصلنا إلى منطقة بنايات متزاحمة متــشابهة الشكل أشبه ما تكون بمجمع السكني ، وعنــدما وصــلنا هناك ترجلنا من السيارة وكانت المفاجأة أن المتواجــدين في

هذا المكان الذين رأيتهم لحظتها كانوا كلهم عرب وكـان بجوار هذه المباني سور كبير يحيط على مساحة كبيرة جـداً من المنازل المتشابهة تقريباً بالتي خارج هذا السور ، سـلم علينا الإخوة الذين التقينا بهم ثم أخذني الأخ الذي أحضرني بالسيارة إلى أحد هذه البيوت التي خارج السور وطلب مني الاستراحة هنا حتى يطلبني فوضعت أغراضي واسـتلقيت حتى جاء وقت الظهر وبعد صلاة الظهر جاءني نفـس الأخ وأخذني إلى غرفة كبيرة وقد رسم على أحد واجهاتها خارطة العالم الإسلامي وبدأ الشباب بالتوافـد إلى هـذه القاعـة والجلوس فيها وفجأة دخل علينا الشيخ أسـامة بـن لادن وكان معه الشيخ أيمن الظواهري والـشيخ أبـو حفـص الموريتاني وآخرين ، فجلس معنا بعد أن سلم علينا ثم أخـذ يتحدث عن واقع العالم الإسلامي وما تعانيه الأمة من مآسي ونكبات وبعد ساعة كان وقت الغداء وبعد أن تغدينا غادر الشيخ أسامة ولا أعلم إلى أين لكني فوجت أن جاء أخـي الحبيب أبو حمزة القطري وسلم علي وكانت حقيقة مفاجأة سارة فأنا لم ألتقي به منذ سنوات ولم أكن أعلم بوجوده هنا

فأخذني معه إلى داخل المجمع المحاط بالسور وأخبرني أننا سنجلس مع الشيخ أسامة ، فأخبرته عن الذي حصل معي منذ مجيئي من كابل إلى قندهار وأنني لم أفهم سبب طلبي للمجيء فأخبرني أبو حمزة رحمه الله أنني وآخرين من الشباب تم اختيارنا لنكون جزئاً من الحراسة في هذا المجمع السكني وهو خاص بسكن عوائل المجاهدين وإن الأشخاص الذين تم اختيارهم تم انتقائهم بعناية بعد موافقة الشيخ على أسمائهم .

عندما وصلنا إلى الغرفة التي كان بها الشيخ تملكتني هيبة ورهبة شديدة وحالة توتر أفقدتني التركيز أثناء الحديث وبعد أن جلست معه أنا وأبو حمزة تجاذبنا الحديث في مواضيع مختلفة وأخبرني أنه يتمنى أن أجد الراحة في هذا المكان وإن لم يكن لي رغبة في هذا المكان فالأمر عائد إلي فأخبرته أنني مسرور هنا وأني لا مانع لدي أن أبقى في هذا المكان ، ولا أخفي أن حالة الاندهاش والارتباك أثناء جلوسي مع الشيخ أفقدتني القدرة على التعبير أثناء حديثنا

، وبعد نصف ساعة من جلستنا ودعني الشيخ راجياً من الله لي التوفيق .

وهنا أذكر أن تلك النصف الساعة كانت من أشد الأوقات إثارة في حياتي فلم أكن أتخيل أن أتمكن من الجلوس مع الرجل المطلوب الأول في العالم بهذه البساطة .

ولعلي أذكر هنا ما رأيته في الشيخ من صفات مع علمي أنني لن آتي بجديد في ذلك وأن أعدائه شهدوا له قبل أحبابه وأن ما أذكره عنه لا يعدوا أن يكون غيضاً من فيض ممن أسهبوا في مدحه والثناء عليه وذكر محاسن أخلاقه .

كان الشيخ طويل الصمت قليل الكلام ، إن نطق قال حكمة وإن صمت ظل هيبة ، فيه تواضع من غير تكلف ، وفيه بساطة وكأنه ما عرف النعيم قط ، ما تكلم بشيء إلا وقع في قلب المستمع له أحسن موقع ، صاحب هدوء وكأنه الصمت المطبق ، به حياء تعجب له ، ما قاطع أحد في حديثه ولا استعجل في كلام قبل أن ينتهي محدثه ، رقيق

الجانب طيب المعشر ، يعطي كل شخص حقه وقدره من الاحترام .

بعد جلستي هذه مع الشيخ ذهبت مع أبو حمزة القطري الذي عرفني بالمكان وحدد لي مكان إقامتي ، ومع الأيام تعرفت على الإخوة هناك حيث عرفت بعضهم ممن كانوا معي في كابل ، ومع الأيام ألفت المكان وأحببته حتى صار لي فيه ذكريات جميلة مع إخوة منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر .

وأود هنا أن أذكر بعض أسماء الإخوة الذين قتلوا فترة وجودي في أفغانستان أو بعد مغادرتها من اللذين تعرفت عليهم ، منهم أخي الحبيب أبو خلود اليمني (تشاركنا سوياً في معارك البوسنة وفي كابل) ، أبو محجن الطائفي (تشاركنا سوياً في معارك البوسنة وفي كابل) ، أبو الزبير الضالعي وأبو عمار الضالعي (كنا معاً في جبل صابر ومعارك كابل) ، أبو معاذ الجداوي (اليميني) ، أبو عبد الرحمن الصنعاني (سيمر الحدا) ، شداد الطائفي (فلسطيني) ، أبو تراب الأردني (في البوسنة وفي أذربيجان وفي كابل)

، مثنى النيجيري (تشاركنا في معارك كابل) ، أبو بصير المصري كنا سوياً في طاجيكستان) ، عبد الملك الليبي وهو من الإخوة الذين أحببتهم كثيراً لما يمتاز به من حسن خلق وطيب معشر وهو شقيق أبو الليث الليبي ، أبو عبد الرزاق الجداوي (كنا سوياً في البوسنة) أبو حازم الشرقي (كنا سوياً في البوسنة وفي كابل) ، وغيرهم الكثير ممن خانتني الذكراة عن تذكر أسمائهم ولكن ذكراهم ستبقى خالدة محفورة منقوشة على صدري ، ولكل واحد من هؤلاء قصته وبطولته لم يسجلها التاريخ ولكنها عند الله في ميزان لا يُبخسون فيه يوم القيامة ، أسأله سبحانه أن يرحمهم ويجمعنا بهم في الفردوس الأعلى وسلامٌ على أرواحهم في الخالدين .

في هذه الفترة التي كنا فيها في قندهار كانت قد بدأت أحداث الشيشان الثانية وبدأ بعض الشباب يغادرون نصرة لإخوانهم هناك فكنت أنا أحد هؤلاء الشباب فقد أخذتني الرغبة والشوق لتحقيق رغبتي بدخول الشيشان والقتال هناك بصف أخي الحبيب خطاب رحمه الله ، واستأذنت الشيخ أسامه وأخبرته برغبتي بالذهاب إلى الشيشان فلم

يمانع في ذلك وأوصانا بتبليغ السلام إلى الإخوة هناك متى استطعت الوصول ، استعنت بالله وغادرت أفغانستان بعد أن أجريت كامل استعداداتي للذهاب إلى الشيشان فتوجهت مع أحد الإخوة إلى باكستان ومن هناك غادرنا باتجاه أحد الدول القريبة من الشيشان في محاولة للدخول من هناك إلى الشيشان ، وهناك التقينا ببعض الإخوة الذين خرجوا من الحدود الشيشانية وأخبرونا بأن الطرق مغلقة فبقينا هناك لفترة وتوالت علينا أشهر الانتظار فكان خروج الإخوة من الشيشان عندها أيقنا بعدم إمكانية الدخول إلى هناك وكان هذا من الأمور التي ضايقتني كثيراً أنني حاولت مرتين الدخول إلى هناك إلى الشيشان ولم أستطع ولكن كفاني بذلك أن أبرئ ذمتي أمام الله في أن بذلت جهدي ولكن لعل الله أراد في ذلك خيراً لي .

وللحديث بقية ...